الدكتور فريد الأنصاري ..

والذكريات التي لا تنسى [1]

دمعات ولمعات

أحمد بن علي الهبطي أبو خالد

ومضة!

يقول الإمام أبو حنيفة النعمان رحمه الله:

"الحكايات عن العلماء ومحاسنهم أحب إلي من كثير من الفقه! لأنها آداب القوم وأخلاقهم".

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على كل حال! الحمد لله الذي لا يحمد على كل حال سواه ، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله أجمعين، ورضي الله عن الصحابة والتابعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أيها الكرام البررة!

بينما كنت في هذا الأسبوع منقطعا في مكتبتي، حائرا بين أوراقي..!!، أتدبر أحوال الحاضر الغائب، الناسك التائب، الأستاذ الدكتور فريد الأنصاري، وأتساءل عن طول غُرْبته.. وعظيم كُرْبته.. في مَشافي اسطانبول، وبلاد الأناضول!! إذا بي أتلقى نبأ نعيه![1] من طرف أحد مقرَّبيه وبلَدِيِّيه![2] وكلما نُعِيَ إلي أخ حبيب مثلُ الأنصاري؛ تذكرت هذا البيت البليغ، للإمام البخاري-رحمه الله- :

إن عشت تُفجعُ بالأحبة كلهم وفناء نفسك- لا أبا لكَ- أفجعُ

[1] وكان ذلك ضحى الجمعة الفائتة (8 ذي القعدة 1430 الموافق 5 نوفمبر 2009).

[2] هو الأخ الدكتور أمين النجدي المكناسي، رئيس مجلس الديانة الإسلامية باللورين. فرنسا.

وكما هو توجيه الإسلام لنا في الصبر عند الصدمة الأولى؛ فإني تذرَّعت -بعون الله- بالصبر والاسترجاع، وسألته تعالى أن يثبِّتني ويُثيبني..!

متسليا بقوله تعالى في الحديث القدسي:" ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيَّه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة"[3]، وقوله صلى الله عليه وسلم: " إن العين لتدمع ، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون "[4]

ومن غرائب الموافقات، أن هذا النبأ -الأليمَ- فَجَأَني، أو- بالأحرى- فَجَعَني، وأنا أقرأ في باب المرض وأحكامه، وحِكَمه وأسراره، وألوانه وأهواله! وكانت لي وقفات خاصة مع النظرة المتفائلة للموت، أو بعبارة الفقيد فريد-رحمه الله-"**جمالية الموت!**" باعتباره تسريحا من سجن الدنيا، وإعفاءً من الوظائف والتكاليف، وبابا للدخول إلى رحمة الرحمن، وساحة الجِنان! وحيث إنَّ مكانة الأستاذ-رحمه الله- فَخيمةٌ في قلوب أهلي وأبنائي وحَماتي..-لما لمسوه فيه من أخلاق القرآن- فإني- بصدق- حِرْتُ في طريقة إخبارهم، وتلطفت كثيرا؛ حَذَرَ أن يصاب

---

[3] رواه البخاري. قال الحافظ ابن حجر في شرح الحديث:" قَوْله: إِذَا قَبَضْت صَفِيّه ـ هُوَ الْحَبِيب الْمُصَافِي كَالْوَلَدِ وَالْأَخ وَكُلّ مَنْ يُحِبّهُ الْإِنْسَان، وَالْمُرَاد بِالْقَبْضِ: قَبْض رُوحه وَهُوَ الْمَوْت، والْمُرَاد بِاحْتَسَبَهُ: صَبَرَ عَلَى فَقْده رَاجِيًا الْأَجْر مِنْ اللَّه عَلَى ذَلِكَ". انتهـى.

[4] رواه البخاري ومسلم

بعضهم بسوء. وكذلك كان! فلقد أجْهَشَت البنت الكبرى بالبكاء، وانهار الصغير(نوفل أصلحه الله) وكـأنما ثَكِلَ أمه وأباه! وأصيب الباقي بالذهول! وكان يومَ حِداد حقيقي في بيتنا، لم نشهده من زمان!

ولما خرجت إلى الجمعة ضربت صفحاً عن الحدَث، إلا تلميحا لبعض المقربين؛ اعتقادا مني أو توهُّما بأن الأستاذ نكرةٌ عند العامة، وأن اسمه لا يكاد يُعرف إلا بين بلديِّيه ومقربيه! أو في أحسن الأحوال بين الوعاظ والخطباء، والكتَّاب والمثقفين؛ بَيْد أن الواقع كان خلاف المتوقع! فما أن لوَّحت بالخبر، وانْبَرَيْت في الدعاء؛ حتى ارتَجَّ المسجد بالبكاء، وعلت الأصوات بالرثاء! عكس ما جرت به العادة مع غيره من الفضلاء؛ حتى أنني والله رثيت لحال إخواني وأخواتي! وأظهرت لهم من نفسي قوةً وجَلَدًا- غير معهودَيْن!-؛ ولكن هيهات هيهات! فلقد أحس العادي والبادي أنَّ الخَطْبَ جَلَل، وأن خطيبهم المكظوم، قد أصيب في صميم الصَّميم منه! ومن ثَمَّ أقبلوا عليَّ- في إشفاق- يُعَزُّونني في مصيبتي، ويواسونني في نَكْبتي..!! وهذا من فقههم وكياستهم- رحمهم الله- فليس نَعْيُ شقيقي الوحيد[5] - رحمه الله- بأشدَّ إيلاما من نعي أخي

[5] هو أخي ومعلمي وشقيقي الأوحد محمد- رحمه الله- الذي توفي أخيرا(في حادث أثناء سفره).

فريد! بل إن قبض العالم- لمن يبصر- أشدُّ وأدهى! فبقبضه يُقبض العلم، ويُقْبَرُ الفضلُ، ويفشو الجهلُ، وتعمُّ الفتنُ!

لعمْرك ما الرزيّةُ فَقْدُ مال ... ولا فرسٌ يموت ولا بعيرُ

ولكن الرزيةَ فقدُ حُرٍّ ... يموت لموته خلقٌ كثيرُ!

إنَّ قبض فريد العالم الأستاذ - حقيقةً- جُرح لا يندمل، وكَسر لا ينجبر، وخسارة لا تُعوَّض! وأين العوض-ياسادة- عن أبي أيوب الأنصاري؟ وأين الخلَف له؟ أين أين؟

أين العالم الجامع المشارك الموسوعي، الرباني الوسطي، الذي يجمع بين الفقه والفكر، والنثر والشعر، والكتابة والخطابة، والعلم والعمل؟ أين فارس القرآن، وصاحب "**منازل الإيمان**"[6] و "**كاشف الأحزان ..**"[7]؟ أين المحاور المناظر، الصابر المثابر، الذي يجلس الساعات تِلو الساعات، يحاور الشباب، ويسامر الطلاب، ويؤانس الأحباب؟ [8]

---

[6] سلسلة دروس تربوية، (مسجلة على الأقراص)، نفع الله بها خلقا كثيرا في حياة الشيخ وبعد موته. وهي أشبه بشرح "مدارج السالكين " للإمام ابن القيم.

[7] رسالة لطيفة تتضمن دعوات وابتهالات قرآنية، من مطبوعات ونشر دار السلام.

[8] كانت له رحمه الله قدرة عجيبة على محاورة الشباب، والرد على تساؤلاتهم وشبهاتهم..، وكان يترل إلى عقولهم، ويحدب عليهم..، رغم مرضه الشديد، وسفره المضني!!-كما شاهدته، وشهد به غيري!-. ولا يزال يشرَح ويُشرِّح، ويبرهن ويحاجج؛ حتى يرد الكثير منهم-بإذن الله- إلى المنهج الصحيح الواضح المعتدل..ونرجو الله أن يوفق كل علمائنا إلى ذلك! فإن مهمة العالم الوارث النائب لا تقتصر على إلقاء خطبة أو محاضرة أو درس، أو نشر كتاب أو مقال؛ بل ينبغي أن يوسع دائرة النظر والفكر، والعمل والاهتمام، ويترل إلى الميدان، مقتديا بالأنبياء والمرسلين ، والمجددين المصلحين... وما التوفيق إلا بالله.

أين عضو المجلس العلمي الأعلى؟ بل أين ركنه الركين، الذي لا ينعقد الإجماع إلا به، ولا يطيب المجلس إلا بطَلْعته؟ أمثلُ هذا العالم-ياسادة- يُصنع في شهور؟ أم يَنْبُغ في أيام؟ !!

كيف كيف؟ كيف طابت أنفسكم ياأهل مكناسةَ الزيتون، أن تُهيلوا التراب على بدْر الصحراء، ورَيْحَانَةِ المغرب، وتحفة مكناس، أبي أيوب؟ كيف حالكم اليوم-سادتي - وقد خسف القمر، وأظلم المنبر؟ أما تَيَتَّمت أرواحكم، واستوحشت نفوسكم، وأصبحتم كالشِّياه في الليلة المطيرة الشاتية؟!

ليتني لم تلدني أمِّي، وأنا أنظر -على الشاشة- من بعيد إلى جُثْمانه النحيل، يُوارَى التراب[9]، ويُغَيَّب عن الأحباب! وكأنِّ - والله - أفقد عضوا من أعضائي، وأسلخ جلداً من جلودي!! "وسبحان من حجب الفضائل بالتراب! والنجومَ بالسحاب! وجعل الحياة كلمْع السَّراب! "[10]!

[9] توفي رحمه الله يوم الخميس 5 نوفمبر 2009 بمستشفى (سماء) باستنبول بتركيا . وتم نقل جثمانه إلى المغرب ، ودفن بمدينة مكناس يوم الأحد 8 نونبر 2009، في مقبرة الزيتون، بعد أداء صلاة الجنازة عليه (بعد صلاة الظهر) بمسجد الأزهر، المعروف بجامع الاروى، بحي السلطان محمد بن عبد الله. وجنازته مسجلة منشورة مشهورة، وفيها عبرة لمن أراد أن يعتبر.

[10] كما عبَّر العلامة الوزير، الحَجْوي الفاسي، رحمه الله، في رثاء والده الجليل سيدي الحسن-رحمه الله- . (انظر كتابه العجاب:"الفكر السامي" ترجمة والده).

وما آسَى ياسادتي، على الشخص والصورة..، ولا على اللقب والشهرة..، ولا على الخُلَّة والصِّلة..، وإنما آسَى على دفْن جزءٍ من ميراث النبوة، ألا وهو العلم الشريف، كما قال ابن عباس–رضي الله عنهما– لما مات زيد بن ثابت:"دُفِنَ الْيَوْمَ عِلْمٌ كثيرٌ! ".[11]

آسَى وأتحسَّرُ على ثُكْلِ سليل الأنصار! وخاصَّةِ النبي المختار! – وموالاتُهم دينٌ– وهم يقِلّون يوما بعد يوم، كما تنبَّأَ المصطفى صلى الله عليه وسلم:" إن الأنصار كَرِشِي وعَيْبَتِي– أي جماعتي وخاصتي–وإن الناس سيكثرون ويقلون –أي يقل الأنصار– فاقْبَلُوا من محسنهم، واعفوا عن مسيئهم" [12]

وقال صلى الله عليه وسلم: آيةُ الإيمان حُبُّ الأنصار" [13].

أعظم الله أجورنا وأجوركم ياأهل تافيلالت! وياأهلنا جميعا في المغرب الكبير! وعوَّضنا وإياكم خيراً! آمين! آمين!.

---

[11] يقول يحيى بن جعفر– رحمه الله– :" لو قدرت أن أزيد في عمر محمد بن إسماعيل"البخاري" من عمري لفعلت! فإن موتي يكون موت رجل واحد، وموته ذهاب العلم". وجاء في الأثر:" موت قبيلة أيسر من موت عالم ". وكان الإمام القدوة أيوب السختَياني يغسل أحد أصحابه ويقول:" إن الذين يتمنون موت "أهل السنة" يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، والله متم نوره...".

[12] رواه مسلم.

[13] رواه البخاري.

وأنتم ياأهل القُسْطنطينية! ياأهل الجود والأريحية! أحسن الله عزاءكم في أستاذكم الأنصاري! الذي حلَّ بداركم ضيفا كريما، ومات في حجوركم غريبا..!! غيرَ بعيد عن سَلَفه، وقريبه وحِبِّه، سيدنا أبي أيوب الأنصاري النَّجَّاري البَدْري -رضي الله عنه-! فهنيئا لكم ياأهل تركيا بالأنصاريَيْن الخزْرَجين، أبي أيوب، وأبي أيوب! هنيئا هنيئا لكم بهذا الشرف العظيم!

وإذا سخر الإله أناساً لسعيد فهم السعداء!

أجل، إنِّي- ياسادتي- حقيقةً- في نكَد عظيم، وحزن لا يعادله حزن على وفاة هذا الرباني القرآني اللَّوذعي.. وإنَّ أحبَّ أحبابي إليّ -اليوم- وبعد اليوم- من يُعزِّيني وأعزِّيه فيه، وفي أمثاله من شموس الأمة، وأرباب الهمَّة.. الذين كرَّسوا حياتَهُم للعلم، وأفنوا أعمارهم في تحصيله وتوصيله؛ راجين رحمة الله، ونفع عباد الله- بلا منة واستكثار، ومباهاة وافتخار-. فَجَزَى الله جزاء الخير والإحسان، من واساني وعزَّاني في العزيز (أبي أيوب!)، وجَازَى خيرا من شارك في نشر تراث الشيخ-بلا فتور وانقطاع!-.

فياأباهاجر الكُتبي، قُمْ قُمْ-رحمك الله- فأَخْرِجْ لنا -الآن الآن- ما تحتك من دُرَرِ الشيخ، وكنوز الشيخ.. ولا تتباطأْ؛ فإن النفوس توَّاقة، والحياة

براقة، وَ " إن لكل شيءٍ شرَّة، ولكلِّ شيءٍ فَتْرَة"[14]، كما قال صلى الله عليه وسلم.

قُمْ قم - رعاك الله- فأنتَ خَزِينَةُ الأنصاري، والمؤْتَمنُ الأول على "**ميراثه**"- كما حدثنا قبل وفاته.- ولك حَسَنَةُ الدَّارَيْن - إن يسَّرْتَ واحتسبت- و نسخت ونشرت -. والله يكفيك ويُغنيك!

وأنت- أيُّها الكَيِّس الخفِيُّ- يامن سابقت؛ فوزعت قُرْص "مناسك الحج" للشيخ الفقيه -رحمه الله- في الوقت المناسب، والموسم المناسب.. حيَّاك الله وحَبَاك! وزادك حرصاً وعُدْ!

ومن أحقُّ بالحديث ياسادة، عن الكعبة الشريفة، وطَيْبَة الطيبةِ، والعِتْرَة الطاهرة، والأنصارِ والمهاجِرَة، من سليل الأنصار، وحفيد بني النَّجَّار! مَن أجْدرُ بذلك مِن هذا الأنصاري الخزْرجي، الذاكر، الباقِر، الذي ذاب قلبُه بحبِّ الحبيب صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ ففاض بالحكمة، وأشرق بالنور ؟ وإنها(أي محتويات القرص) لمسائل منخولة، وكلمات مصقولة ! جمعت بين دقة الفقيه، ورِقَّة الداعية![15] فاظفرْ بها -أخي

---

14 أخرجه الخطيب التبريزي في المشكاة [ج5254]وحكم عليه الألباني بالحسن ، انظر صحيح الترمذي [ج2453]، والمنذري في الترغيب والترهيب [ج56] .

15 وما أجمل الجمع بين العاطفة والعقل، والفقه والفكر ، والأسلوب والمضمون !! وكم نحن في حاجة إلى هذا النوع من العلماء الجامعين المتقنين !!

الحاج- واستمع إليها مرات تَنَلْ حجّاً مبروراً، وسعيا مشكوراً! ولا تنْسَنَا والشيخَ ثمَّةَ من صالح دعائك! ولك بمِثْلٍ- كما جاء في الحديث-.

وبعد، فما قصتي مع هذا الرجل؟ وكيف تعرفت على الفقيد -فريد- رحمه الله-؟ وما سِرُّ احتفائي به حيّاً وميّتاً؟ وما أوْجُه الاتّفاق والائتِلافِ بيني وبينه؟ - وهو الأستاذ وأنا التلميذ، وهو المُبتدي وأنا المقتدي-[16].!؟

الحقُّ أن شطراً كبيراً من الجواب، ذهب مع ذهاب الأستاذ رحمه الله! وكان-ولاشك - أقْدَرَ مني على التعبير عن هذه الوُصْلة الأخوية السامية، التي نشأت بيننا في سنوات معدودات، وندوات معلومات؛ فباركها المولى الكريم وزكاها، وأثمرها ونمّاها..!! ولا أجد في التعبير عنها أبلغ من قوله تعالى: "لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم"[17]، وقوله الرسول الأكرم، عليه الصلاة والسلام:" الأرواح جنود مجنَّدةٌ، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف"[18].

16 بل أقول هاهنا-بصدق-: إن صلحتُ أن أكون ذرة رمل أو حبة تراب في جنبه فهذا وسام عظيم !!

17 سورة الأنفال.

18 رواه البخاري.

لقد عرفت الفقيد أول ما عرفته-رحمه الله- شاعرا مبدعا، ينشر قصائده في مجلة "**الأمة القطرية**" في مطلع الثمانين من القرن الميلادي الماضي، و لم أكن يومئذ شغوفا بالشعر، ولا مَعْنيا بتِبْرِه وتِبْنِه، وغثه وسمينه، ومع ذلك وجدتُني أطرب لقوافيه! وأتلمس فيها المعاني الراقية الرقْرَاقَة، بشرَهٍ عجيب، وصبر غريب! حتى كاد يستميلني-رحمه الله- إلى عالم الشعر والشعراء، على حين غفلة مني!. وصدق الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم: "إن من البيان لسحرا"، وفي رواية: " إنَّ بَعْضَ البَيانِ سِحْرٌ -"[19]!

وكنت أحسبه-يرحمه الله- أنصاريا حجازيا -دارا وقرارا- إلى أن فوجئت- بعد مدة- بمقالاته الأسبوعية، في صحيفة مغربية؛ فأدركت عندئذ أنه مغربي أصيل، من بلاد النخيل - سجلماسة-.

وكنت-ولا أزال- متأثرا ببيانه، وعمق تحليله، وغزارة علمه! وكأنني أقرأ لفقيه أديب، من طبقة كنُّون، والنَّدْوي، والخضر حسين، وأحمد شاكر، وعلي الطنْطاوي.. وزاد-رحمه الله- تألُّقا وإشراقا في كتابه : "**التوحيد والوساطة...**" الذي نشرته مجلة"الأمة" القطرية. وهو لعمري من عُيون كتب التربية! -كما شهد الكبار-؛ بل من أجود ما فتح الله به

---

[19] رواه الإمام البخاريُّ في صحيحه، كتاب الطب.

على كاتبنا الشاب يومئذ- وافقه من وافقه، وخالفه من خالفه- وسبحان من تفرد بالكمال!

ثم شاء الله عزوجل أن تعصف بي رياح الأقدار بعيدا عن الوطن العزيز، (في منتصف الثمانينيات من القرن الماضي)؛ فغاب عني خبر الأديب الأريب، وفقدت كل اتصال بمقالاته، إلى أن علمت به عضوا بارزا في المجلس العلمي، بمكناسة الزيتون! وخطيبا مفوها بمساجدها! فقلت في نفسي: لقد "عادت القوس إلى باريها"، والمياه إلى مجاريها؛ ولكنْ ما حظ الرجل من علوم الوحي المعصوم، وما علاقته بالفقه والفتوى، والعلم والعلماء..وهو الأديب اللغوي الجامعي؟! وما دريْتُ يومها- مع الأسف- أنه الفقيه الأصولي ؛ بل الموسوعيُّ العصامِيُّ!

وليس على الله بمستبعد أن يجمع العالم في واحد!

وفي زيارة عابرة للوطن(الأم)، شاء الله أن أجدد الصلة مرة أخرى بكاتبنا الحبيب- في عيادة طبيب-، وأن أقف له على مقال جديد، من طراز فريد، لم أعهده من أقرانه، وممن هو على شاكلته من الأكاديميين والمثقفين.. وكان يرثي في هذا المقال فقيها قرآنيا، ومُعَلما ربانيا، تربَّت على يده أجيال، وخرج من صلبه رجال، ولا يكاد يسمع به أحد! ألا

وهو المعلم النصيح، والمربي النجيح، الفقيه سيدي العمراوي الفلالي- نفعنا الله بمحبته- دفين سيدي سليمان-؛ فانبرى الكاتب(الأنصاري) للكشف عن مناقبه، بأسلوب يَنْضَحُ-والله- حبا للقرآن، وأهل القرآن؛ حتى ليتمنَّينَّ العبدُ أن يكون محلَّ ذلك الميت!! فزادني الأنصاري-رحمه الله- أنسا بالله، واعتزازا بكلمات الله، وشددْتُ الرحال إلى أبناء الفقيه[20]؛ بل إلى فقهاء الفقيه؛ لأقدم لهم التعازي فيه-بفضل ما قرأت وتذوقت-. ولا تزال الصلة القلبية قائمةً بيننا وبينهم، والحمد لله! "وإلى الله نشكو التقصير"! -كما قال الإمام الذهبي- في السير-.

والحاصل أنه تَبَرْهَنَ لي- من خلال هذه المقالة وغيرها- أن الرجل مجذوب إلى الله- جذبا حقيقيا، لا صُوريا تمثيليا-، وإن شئتَ فقل: هو قرآني حتى النخاع! يتنفس هواءه، و"يعشَق" حروفه، ويتلذذ بمعانيه! وأدركت أنه ماض في هذا الطريق، طريق القرآن، وخدمة القرآن..، مهما كانت الصِّعاب والعِقاب! (جمع عقَبَة)، وكذلك كان؛ فإن الأستاذ الرباني-رحمه الله- رغم شاعريته وفحوليته في فنون شتى، وخاصة في اللغة والبيان، والمصطلح والأصول؛ فإن طموحه الحقيقي، ومشروعه

[20] أقصد الأشقاء الفقهاء العمراويين، الصحراويين، المقيمين بسيدي سليمان، وفي مقدمتهم الأخ الكبير، والأستاذ الفقيه، سيدي امحمد، رئيس المجلس العلمي، ومدير معهد الإمام مالك .

العُمْري، الذي استقرَّ عليه أخيرا، ونُسب إليه، واندمج فيه، ومات عليه-إن شاء الله-ولا نزكي على الله أحدا- هو مجالس القرآن، ومدارسة القرآن، وتدبر القرآن! كان هذا هو هِجِّيرَاه -بشهادة المؤالف والمخالف-؛ متأثراً -في ظني- بمدرسة النور التركية، وبأستاذه ومربيه، العلامة الشاهد البوشيخي الفاسي-نضر الله و جهه- الذي ما فتئ يدعو أيضا إلى تدارس القرآن، وتداول القرآن، بمنهجيته الفريدة، وأسلوبه الهادئ الرصين! والفضل-دائما- للمبتدي وإن أحسن المقتدي.

وقد صادفت هذه العناية بالقرآن هوىً في نفس هذا العبد -بحكم أني طالب قرآن-ولا فخر-؛ فتتبعت الأستاذ في مسيرته القرآنية، شبرا بشبر، وذراعا بذراع، وانتظرت منه -كالعادة- إنتاجا نوعيا غزيرا في هذا المجال، يملأ الفراغ، ويتسم بالإبداع! إلى أن وقعت في يدي رسالته السَّيَّارة :"**مجالس القرآن...**" فقلت في نفسي: قد فعلها الأستاذ والله! وهذا هو المنهج الذي كنا ننتظره ونتوخاه..! هذا هو المنهج -التعليمي التَّزكوي- الذي يتلاءم- إن شاء الله- مع مراد ربنا في تيسير القرآن للذكر[21]، بعيدا عن التكلف والتفلسف، والتشديد والتعقيد.. ذلكم أن القرآن- ياسادتي- رسالات الله للعالمين أجمعين، أبتعين أكتعين.. لا

[21] إشارة إلى قوله تعالى: ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر" القمر.

لأفراد معيَّنِين، أو أجناس مخصوصين.. ومن ثَمَّ لا ينبغي تلوينه بلون حزبي، أو مذهبي، أو شخصي..، أوما أشبه ذلك من ألوان، ما أنزل الله بها من سلطان. وينبغي لكل إنسان، أي إنسان، أن ينال قسطه من القرآن- قَلَّ أو كَثُر- مُتَعْتِعاً متعثِّرا، أوْ متعلما ماهرا.. ناظرا متدبرا، أو عالما مفسرا! تلك هي أمنيتي، وذاك هو مسلكي، إلى أن ألقى ربي وخالقي- إن شاء ربي-.

ومن ثَمَّ تفاعلْتُ مع فكرة "مجالس القرآن" التي بشَّر بها الأستاذ؛ رغم مثاليتها في الظاهر، واستعصائها على التطبيق- بضوابطها وشروطها- في عصرنا العصيب؛ بيْد أن كثيرا مما كنا نعده في السابق مثالا، أوْ خيالا، صار اليوم واقعا ملموساً، وحقيقة ماثلةً. " والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون" سورة يوسف.

ولا أحب هاهنا أن أشغل نفسي أو غيري في ذكريات طريفة بيني وبين الأستاذ-رغم أهميتها ودلالتها في السياق التربوي-، وحسبي أن أشير إلى ما يتعلق منها بالقرآن، وبرسالة القرآن، وفاءً لذكراه- رحمه الله- ونزولا عند رغبته في تجريد القرآن، (أي : عدم خلط القرآن بسواه!).

لقد رأيته –رحمه الله ونور قبره– كيف تفاعل مع آيات قرآنية، في مناسبة غالية–بالبلاد الفرنسية– حتى أنه رفع عقيرته قائلا:" أُصِبت ياجماعة بالانهيار!... "[22]

ومعلوم أن ذلك لم يكن بسبب نداوةِ صوتٍ، أوْ حُسْنِ أداءٍ... فالقراء غيري كثير! والمتنغِّمون أكثر! ولكنْ بسبب آخر – في تقدير كاتب السطور– ألا وهو تغلْغل الرجل في معاني الوحي! وغوْصُه في أعماقه! وهو الأديب الذوَّاق، والمُعْتَلُّ المشتاق، الذي صدَّع القرآن قلبَه، وملك عليه لُبَّه ! " ولو أن قرآنا سُيرت به الجبال أو قُطِّعت به الأرض أوكُلم به الموتى... "[23] .

وكنت قد قرأت–قديما– للأستاذ الكبير إحسان قاسم الصَّالحي[24] – في مجلة "حِراء" – فيما أذكر– أن الأستاذ الأنصاري المغربي لا يدَع قيام

[22] ولم تكن هذه الآيات إلا قوله تعالى: "ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم لا تمدنّ عينيك... " سورة الحجر. ولك– يامحب– أن تجرب قراءتها وسماعها بمنهج التلقي لتذوق ما ذاقه فريد الفريد وغيره من أهل الله وخاصته!

[23] سورة الرعد.

[24] وُلدَ الأستاذ عام(1936) بمحلّة (المصلّى) بكركوك بالعراق ، من أبوين محترمين، وسط عائلة معروفة ذائعة الصيت، من أسرة تعليمية محبة للعلم والعلماء والكتب ، مترعرعاً في كَنَف الأستاذ العلاّمة اللغويّ والتاريخيّ (قاسم بك بن مصطفى بك الصالحي) – هاجر إلى تركيا، وتخصص في رسائل النور، وقام بترجمتها ونشرها.

الليل في سفر وحضر![25] وأنه شاهد ذلك منه على مدى أسبوعين كاملين، في رحلة علمية بماليزيا؛ فتأثرت كثيرا بهذه الشهادة النادرة، ومَقَتُّ نفسي..، وصارت كل شعرة في بدني تَحِنُّ -حقيقة- إلى هذا العبد القانت! الساجد القائم ! ثم سألت ربي- رغم ذنوبي وعيوبي- أن يُرِيَني منه ذلك عيانا؛ فإن هذا -والله- مما تقَرُّ له العين، ويفرَح له الربُّ، ويعِزُّ وجوده في آخر الزمان[26]!

ولما نزل الأستاذ الدكتور- رحمه الله- ضيفاً عزيزاً على "تجمع المسلمين بفرنسا" شاء السميع المجيب، الودود القريب، أن أكون إلى جواره في الفندق -من غير تقدير مني ولا تدبير- والله!-؛ فقلت في نفسي: سبحان الله رب العالمين! هذا هو الأنصاري بلحمه ودمه..! وهذا هو ليل العابدين، ومأرز التائبين.. فلأنظر ماذا يكون ؟! وما هي إلا لحظات حتى سمعت للأستاذ دوِيّاً بالقرآن كدوِيِّ النحل.. وأزيزا كأزيز

[25] وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام في شأن عبد الله بن عمر:" نعم الرجل عبد الله، لو كان يصلي من الليل " [متفق عليه]. قال سالم بن عبد الله بن عمر: فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلاً.

[26] روى الطبراني بإسناد حسن، عن أبي الدرداء -رضي الله عنه- قال صلى الله عليه وسلم: " ثلاثة يحبهم الله عزوجل ويضحك لهم، ويستبشر بهم... والذي يكون في سفر، وكان معه ركْب، فسهروا ونصبوا، ثم هجعوا، فقام من السَّحر في سرّاءَ أو ضرّاءَ..." وقد ورد في حديث رجاله ثقات: أن الذين يضحك الله لهم هم من أهل الجنة!. ولهذا كان الشاعر الهندي، محمد إقبال-رحمه الله- يقول:" خذ مني ما شئت يارب، ولكن لا تسلبني اللذة بأنّةِ السَّحَر، ولا تحرمني نعيمها"! وقال أيضا:" كن مع من شئت في العلم والحكمة، ولكنك لا ترجع بطائل حتى تكون لك أنّةٌ في السَّحَر"! إي وربّي! فاللهم باسمك المنّان! مُنَّ علينا بذلك، ولا تحْرِمنا بذنوبنا!.

المرجل..؛ فأفقْتُ قائلا: الله أكبر الله أكبرُ! "صَدَّقَ الخَبَرَ الْخُبْرُ! " كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون، وبالأسحار هم يستغفرون"[27].

منَع القُرآنُ بوعـدِه ووَعيـدِهِ * مُقَلَ العيونِ بليلِها لا تهجـعُ**

فهِمُوا عن الملِكِ العظيـمِ كلامَهُ * فَهْمًا تذِلّ له الرقـابُ وتخضَـعُ**

و سمعته يقرأ في بيتنا سورة الفرقان- الحبيبة إلى قلبه-؛ فلم أر أخشع منه، ولا أحرص على التدبر! يقرأ رحمه الله على السجيَّة، بنَغْمة مغرِبية، ولا يعنيه-فيما رأيت- إلا التلقي عن الله، والاستشفاء بكلام الله! ولا زِلْتُ إلى الآن أتغذَّى بهذه الحال! بل كلما استَحْضَرْتُ ذلك تَرَقْرَقَ دمْعي، ورَفْرَفَتْ رُوحِي..وصغرت نفسي! ولعل هذا من دلائل إخلاصِ الأستاذ- إن شاء الله- وللإخلاص أمارات وأشراط..، لا تخطئها العين. ومن أخلص لله بُورك له في القليل، ودام عمله واتصل.

وكنت أجده- أَفْسَحَ الله في قبره- يقفُ طويلاً أمام الكلمات القرآنية والحديثيَّة، ويجعلها هي المحورَ والجوهرَ، والمقصد والغاية..، وذاك مَيْزَّةٌ من فقهه - يرحمه الله- فإن " فضلَ كلام الله على سائرِ الكلم، كفضل الله على خلقه" -كما ورد في الأثر-.

---

[27] سورة الذاريات

وكان -رحمه الله- لا يقف أمام كلام المفسرين إلا بقدر الضروروة أو الحاجة، ولربما اعترض على بعض التفاسير الكلامية الاستطرادية.. ، المغرقة في الإعراب والإغراب، والتفريع والتسجيع، وقال: إنها تحجب الناس عن حقائق القرآن! وربما أضاف - مازحا-: "مالي إذا قرأت القرآن فهمته، وإذا قرأت التفسير احتجت معه إلى تفسير **!!**"[28]، (أو كما قال).

وكان الأنصاري الأكاديمي الدكتور-أعلى الله قدره ورفع ذكره- لا يَبْخل في حديثه بالصلاة على النبي الكريم، والترضي عن آله وصحبه، والترحم على ورثته، معَ الحرْصِ على تَحْلِيَةِ العلماء والصلحاء والفضلاء بألقاب التَّجِلّة والتعظيم[29]؛ مسترشدا بقوله تعالى: "ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه" سورة الحج، وقوله عزوجل:" والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان " الحشر.

28 نعم العجب -ياسادة- مِمَّنْ يَشْغَلُه كلام الشارح عن كلام الشارع. العجب كلُّ العجب- مِمَّن يُتمْتِمُ بكلمات الوحي، ويَخْتَزِلُها في لاَزِمةِ: "إلى آخره، إلى آخره..."! فإذا مرَّ بكلام شاعرٍ أوْ مفسرٍ طار به فرحاً! وغَنَّ مع المُتَيَّمِ الولْهان:

وحدِّثْني ياسعدُ عنها فزدتَّني   جنونا فزدني من حديثك ياسعْدُ

هواها هوًىً لم يعرف القلبُ غيرَه   فليس له قبلٌ وليس له بعْدُ

29 خلافا لمن يرى ترك هذه التحليات والترضيات والترحمات...، اكتفاء بالأسماء المجردة.. ، ولهم في ذلك تصورات واجتهادات، نترك الكلام فيها للعلماء الراسخين، والأئمة المهتدين.

وكان أحبَّ القراء إليه —كما حدثني مباشرة- الشيخ محمد العالم الدُّوكَالي ، وهو شيخ ليبي طرابلسي رباني مُتقن، قد لا يعتني كثيرا بالمقامات والألحان..، كعادة بعض الشُّبَّان؛ ولكنه إذا قرأ القرآن حسبتَه خشى الله! - وفي كل القراء خير-!

بل إن أستاذنا- أعلى الله مقامه- كان يُجِلُّ أهل القرآن عامة، ويُثني عليهم، ويُدْنيهم، ويتشفع لهم، ويعفو عن مسيئهم، ويَصِلِهم بأنواع الهِبات -كما حدث الثقات-. وهذا فرع عن مكابدة القرآن، ومحبة القرآن.. فمن أحب القرآن أحب أهله!- قولا واحدا- يقول صلى الله عليه وسلم :" إن من إجلال الله تعالى: إكرامَ ذي الشيبة المسلم، وحاملِ القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه، وإكرامَ ذي السلطان المقسط".[30]

وكان —بيَّض الله وجهه- يسبغ الوضوء على المكاره-كما شاهدته -، ويطيب له كثيرا سرد حديث الإسباغ، والتفصيل فيه.. ويحافظُ على الوضوء في سفره وسمره، والصلاةِ بعده، رغم مرضه وتعبه، ويردد:" الوضوءُ سلاحُ المؤمن في معركتهِ ضدَّ الشيْطان"[31]. بل إن الصلاة

[30] رواه أبوداود من حديث أبي موسى الأشعري. وحسَّنهُ النووي، والذهبي، والعراقي .

[31] من الأمانة العلمية الإشارة هنا : أن مقولة" الوضوء سلاح المومن "ليست حديثا نبويا –حسب علمي – خلافا لما ذكره الأستاذ فريد رحمه الله–سهوا– في سلسلة "منازل الإيمان".

كانت هي ملاذه وسلواه، وأنسه ونجواه، !! وما تألم لشيء تألمه-رحمه الله- للعجز عن السجود الكامل، والركوع الكامل؛ بسبب داء المفاصل!!. وأذكر أن أحد العوام شكا إليه سقَمه؛ فسأله الأستاذ: أتقدر ياهذا على السجود؟ قال نعم. فعقب أستاذ (بما معناه): إذن ما بك شيء، ما بك شيء !! ياأخي، أنت بخير، أنت بخير، احمد مولاك، وكُفَّ عن الشكوى !!.

ولَمَّا طَلَع علينا -رحمه الله- ونحن جلوسٌ عند أحبَّتنا في منطقة "لِيلْ" سلَّمَ سلاماً خفيفاً، ومرَّ بيننا مرور السهم، ثم توجه إلى قاعة الصلاة، ومكث في مصلاه ما شاء الله أن يمكث ، يُطفىءُ ضِرام وَجْده بالركوع والمناجاة والدعاء، ويشحن بطّارية روحه..؛ فتأملت حاله، وأيْقَنْتُ — ياسادة-أنَّه في شأنٍ، ونحن في شأن! أي أنَّه بَيْنَنا بجسمه، ومع ربه بروحه! كما قيل:

جِسْمي معي غيرَ أن الروحَ عندكم فالجسم في غُربةٍ والروحُ في وطنِ!

وأشهد أني لم أسمع درسا في "مفهوم الإمامة" أبلغ مما سمعت من الأستاذ الرباني في مؤتمر الأئمة. ووالله لقد أسبى العقول، وأسر القلوب، وقال كلاما تُشد إليه الرحال، وتقطع إليه المسافات الأميال، ولن تظفر به في

سِفْر أو مقال، وكأنَّ مَلَكاً -ياإخوتي- يتحدث على لسانه ! -بلا مبالغة ولا مغالاة-. ولا زلت أترجى إدارة المؤتمر الموقرة أن تُخرج لنا هذا التسجيل! فإنه -لعمري- من العلم النافع، الذي يؤجر عليه المتكلم والمستمع والناشر..! ولو قُدِّر لي أن أضع عنوانا لهذا الدرس الماتع لوضعت: "فتح الباري، في مفهوم الإمامة عند الأنصاري".

ومن أقواله التي لا تنسى:

"من جعله الله إماما ساق إليه خلقه !".

"والله إن لم يجعلك الله إماما في السماء فلن تكون إماما في الأرض !".

مشيرا إلى قوله تعالى" إني جاعلك للناس إماما" سورة البقرة.

وكم رغِبْتُ إلى الأستاذ القرآني الرباني الأواه أن يؤمنا في الصلاة؛ لأتبرك بقراءته، وأنهلَ من خشوعه! فما كان جوابُه - رحمه الله تعالى- إلا الرفضُ والامتناعُ! ولعلِّي طوَّلت عليه أحيانا في الصلاة- من غير قصد مني ولا عمد-، ولم أراعِ ضَعفه - كما علمتنا السنة-، فما تزحزح-رحمه الله- ولا تنحنح، ولا تأفف ولا ضجر؛ بل كان لسان

حاله يقول في خشوع المؤمن:" بها أرحنا يابلال"[32]! رغم ما كان يقاسيه- رحمه الله -من آلام وأسقام، لو نزلت -والله-على جبل لهَدَّتْهُ! فكيف بصاحب جسم نحيف، وعَظْم واهٍ ضعيف!

وإذا حلّت الهداية قلباً نشِطت للعبادة الأعضاء!

أوَ لَيْسَ -ياسادة- هو صاحبَ كتابِ "**قناديل الصلاة**"؟ "[33] فمن يخطر على باله مثلُ هذا العنوان، ومن يَفيض قلبُه بهذا العرفان، إلا المتلذذون بالقرآن، المناجون للرب الرحمن؟!

مَنْ مَنْ -ياصاح- يستطيع أن يصُوغ بقلبه ووجدانه، ما صاغه فريد في "**القناديل**" وفي "**جمالية التدين**" وفي "**ميثاق العهد**"، وسائر أعماله وكتبه، إلا أن يكون عارفا بربه، مُشاهدا بقلبه؟!

ورحم الله العارف ابن عطاء الله، إذ يقول في حِكَمه:" **من أُذِنَ له في التَّعبير فُهمتْ في مسامعِ الخلْقِ عبارتُهُ، وجُلِّيَتْ لَهُمْ إشارتُه**" !!

[32] حديث " **بها أرحنا يا بلال** " ، أخرجه الدارقطني في العلل من حديث بلال ولأبي داود نحوه من حديث رجل من الصحابة لم يسم بإسناد صحيح(الموسوعة الشاملة) .

[33] كتاب أدبي تربوي بديع! لا يفهمه إلا المتمرسون بالأدب. وقبيل وفاته رحمه الله أصدر كتابا آخر بعنوان:" **الصلاة هي الدين .. الصلاة مفتاح الفرج**"، وهو كتاب واضح ميسر مفيد.

رجاء ودعاء:

فيأخي في القرآن! كن فصيحَ القلب تكنْ فصيح اللسان! "إقرأ باسم ربك الذي خلق"، لا باسمك الفاني الضعيف؛ يُكرمْك الله بكراماته، ويتصدقْ عليك بفيوضات علمه، وخزائن فضله "إنما الصدقات للفقراء والمساكين"سورة التوبة.

فاللهم إننا فقراء إليك! فأوف لنا الكيل وتصَدَّقْ علينا! آمين، آمين!!!

رحمك الله يافارس القرآن! ويأستاذ البيان! فلقد كنت قرآنيا في لغتك، قرآنيا في معجمك! قرآنيا في اقتباسك! تقتبس من القرآن ألفاظا لا يستخرجها إلا الغواصون! وكانت هذه الألفاظ النُّورانية تُضْفِي على بيانك الساحر مُسْحةً من الجمال، تأسر النفس، وتؤنس الروح، وتملأ القلب سكينة ورحمة! ولا زالت أصواتك العَذْبة الطريَّة الصادعة.. تصْدَحُ في كل مكان، توقظ النائمين، وتنبه الغافلين، وتشهد لك عند رب العالمين.. هنيئا هنيئا لك أخي بهذا القبول، وبهذا الإقبال! وسلام عليك في الآخرين!

وكنتَ أقدرَ من عرفتُ-رحمك الله- على توظيف العامِّية في خدمة الإيمان، ورسالة القرآن- داعيا وهاديا- حتى ليخيَّلُ إليك أن الأستاذ

الدكتور لا يعرف غيرها! ولكنه إذا نطق بالفصيح أتى بالمليح؛ حتى ليقول القائل: ليته بقي في الساحل!

سمعته مرة يحدث أهل بلده تافيلالت- أهل الفطرة والوفاء، والكرم والإباء- فما رأيته يتميز عنهم- رحمه الله- في نبرة، أو نظرة، أو تعبير! بل أزعم أنه - أنار الله مرقده-يتفوق عليهم أحيانا في الأمثال الشعبية، والحِكَم الضاربة أطنابَها في القِدَم! وكأنه بقية الأجداد في الأحفاد!

ورأيته- يرحمه الله- يحثهم على تلقين أبنائهم العامِّية- على عِلَّتها- باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من لغة القرآن، ولسان القرآن، ولا ينقصها في الغالب- حسب رأيه- إلا قواعد النحو والصرف، وبعض أدوات الربط؛ بل إنه يشارك أيضا بلكنته الجميلة.. في الأمازيغية الأصيلة، ويتحبب إلى أهلها..؛ بروراً بأمِّه الأَنِيفيَّة[34]، الصَّحْراوية، المباركة، وحفظا لوُدِّها- كما علمنا الإسلام-. فإذا خالط الأتراك أو غيرهم؛ اندمج فيهم، وتودد إليهم، وحدَّثهم بما يعرفون! ومن ثَمَّ اجتمعت عليه القلوب في كل مكان، وانجذبت إليه انجذاب الحديد إلى المغناطيس! وصدق القائل : "من لاَنَتْ كلمتُه، وجبت محَبَّته"! بل صدق الله

[34] نسبة إلى ألنيف، بنواحي الرشيدية المغربية.

القائل" إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وُدا " سورة مريم.

فياإخوتي الأعزاء! وياسادتي الخطباء! أسألكم بالله أن تقتدوا بأخيكم فريد، وأن تراعوا مقاصد الشريعة في الخطاب!

تحرَّوْا – رحمكم الله– السهل الممتنع[35]، القاصد القريب، واجتنبوا الإطنابَ والإغرابَ، والْمُعُمَّياتِ والألغازَ.. (وخصوصا في الخطب والدروس)؛ فإن التكلُّفَ[36]– والله– لا يأتي بخير!

التكلف مذموم، وصاحبه مرفوض. يقول تعالى على لسان الأسوة الكاملة:" ...وما أنا من المتكلفين". سورة ص.

التكلف –مع الأسف– هو الذي منع –سادتي– عباقرة أفذاذاً من نشر أبحاثهم وأعمالهم ، وجواهرهم ودررهم، كراهة أن يطلع النقاد على شيء من هناتِهم وزلاتِهم! وكأنهم –بلا شعور– يريدون أن يضاهوا

35 العالم الناجح هو الذي يأتي بأفكار كبيرة، ويعبر عنها بعبارات يسيرة، وليس العكس.

36 التكلف–كما قال العلماء– معناه : تكلف الشيء ومحاولة معرفته وإظهار الإنسان بمظهر العالم وليس كذلك.

كتاب الله الكامل المعصوم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. [37]!!

وما قيمة التكلف والتعسف والتفلسف، -ياسادة- ونصف أمتنا أمي عامِّي، لا يكتب ولا يحسب؟!!

ما قيمة كلام لا يفهمه إلا صاحبه، أو حَفنة قليلة من أقرانه؟!

ما قيمة الترف الكلامي والعلمي، والحرائق تشتعل، والسفن تغرق، والبشرية تصرخ: هل من مغيث؟! هل من مجيب؟!

أو ليس" الربَّاني هو الذي يُربي الناس بصغار العلم قبل كباره" -كما قال ابن عباس رضي الله عنهما-؟

فلنكن ربانيين قرآنيين مقاصديِّين إذاً، كما كان فقيهنا فريد-يرحمه الله!

" ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون" آل عمران.

نعم ياصاحب القرآن![38] لقد كنت قرآنيا-حق العظم- بشهادة موافقيك ومخالفيك، في حياتك ومماتك! " **قضاياك قرآنية، ومجالسك**

---

[37] وماذا عليهم لو بذلوا المجهود، وقدموا الموجود، وتركوا الحواشي والتعليقات لغيرهم؟ !!

قرآنية، ومصطلحاتك قرآنية، وبرنامجك قرآني، وشعرك قرآني ، وتصوفك قرآني.. "[39].

وتربَّع القرآن- ياخادم القرآن- على عرش قلبك-في نهاية عمرك- فلم يعد يَشْغَلُك عنه شعر ولا نثر..، ولا فلسفة ولا فكر، [40] وأنت الأديب المطبوع..، الذي شهدت له الدنيا بالنبوغ! وكلما لوَّحوا لك بدوْرية، أو رواية ، أو ديوان، أ و مجلة ..؛ احتضنت المصحف الشريف، وأشرت بلسان الحال:" ذلك الكتاب لا ريب فيه.." سورة البقرة.[41]

ومِن هذا الكتاب الذي لا ريب فيه- القرآن- كنت أيها البنَّاءُ الغوَّاصُ، تستخرج لآلئَ أدهشت الخواص !. ودونكم دروسه فاسمعوها، وكتبه فاقرؤوها !!

---

[38] عن أبي هريرة رضي الله عنه : عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (يجيء صاحبُ القرآن يوم القيامة ، فيقول : يا رب حلِّه ، فيُلبس تاجَ الكرامة . ثم يقول : يا رب زده فيُلبسُ حلةَ الكرامة ، ثم يقول : يا رب ارضَ عنه ، فيقال اقرأ وارق ويُزاد بكل آية حسنة) .(حديث حسن) انظر (صحيح الجامع8030).

ولا يسمى الصاحب صاحبا –على الحقيقة - إلا إذا لازم صاحبه، وتعهده وأحبه.. وبذل الغالي والرخيص من أجله. وصاحب القرآن هنا، هو الذي يقرؤه، ويتعهده، ويتفهمه ويتدبره، ويحبه ويجله، ويعلّمه وينشره، ما استطاع إلى ذلك سبيلا. جعلنا الله وإياكم منهم.آمين.

[39] كما رثاه أستاذه ، ومحبوبه، ومنتقده، الشريف الفقيه سيدي أحمد الريسوني.

[40] يقول ذو النُّورين-عثمان- رضي الله عنه:" لو طهرت قلوبنا لما شبعت من القرآن"!

وكذا رَوَوْا عن سلَفِكَ القرآني الرباني، الشيخ متولي الشعراوي -رحمه الله- الذي عكف عشرين سنة على المصحف الشريف[42]!-في خواتم عمره- لا يعرف غيره؛ ففتح الله عليه من الخواطر ما يغبطه عليه الأكابر! فاللهم لا مانع لما أعطيت! ولا معطي لما منعت!

ورأيتك ياسيدي، كيف تصغي إليّ بوقار؛ بل تكاد تضع أذنيك في فمي-تذللا وتواضعا-[43] وأنا أناجيك -مستفيدا منك-؛ وكأنني أنا الأستاذ وأنت التلميذ، أو أنا الكبير وأنت الصغير! بل رأيتك تفعل هذا مع الصبي، والعامِّي، والأمِّيِّ، وتخفض الجناح للمؤمنين، كلِّ المؤمنين، كما أمر الله:" واخفض جناحك للمؤمنين" سورة الحجر. فإذا ما أفْرَطْتَ على أحد من تلاميذك أو أصحابك، أو قسَوت عليه-قسوة رحمة- طار نومك، وطال حزنك! وأخذت سماعة الهاتف تتودد إليه كالطفل الوديع؛ أن يجعلك في حِلٍّ- كما أخبرني من اتصلت به في آخر عمرك.

42 قرأت هذا قديما في سيرته الذاتية، بقلم أحد الكتاب المصريين.

43 وهذا من خُلق القرآن" ولا تصعر خدك للناس" سورة لقمان.

أما إذا بلغَك خطابُ مادح، أو قادح، أو ناصح؛ فإنك لا تتصفّحُه وحسْبُ؛ بل تَرْتَشِفُه ارتشافاً! [44] ولا تستَنْكِفُ عن ردِّ التحية بمثلها، أَوْ بأحسنَ منها! وهذه تربية القرآن:" وإذا حُيِّيتم بتحية فحَيُّوا بأحسنَ منها أو رُدوها" النساء.

وتأمل معي هذه العبارات الرقراقة، الفائضة بالود والعرفان، التي خطها الأستاذ الأنصاري لأستاذ مثله خالفه الرأي، وقسا عليه في النقد. يقول رحمه الله:

"أخي.. قرأتُ رسالتك المنشورة على الأنترنيت، وإنما سلمها إليّ – مشكوراً – أحد الإخوة المحبين، المولعين بالسياحة في هذا الفضاء الرهيب. إذ ليس ذلك من عادتي؛ لانشغالي بأمور أخرى. ولا أقول لك إني قرأها وحسب؛ بل إنني قد ارتشفتها ارتشافا، وارتويت منها ارتواءً! وإنني إذ كنت أقرؤها كنت أتذوق عباراتها كلمةً كلمةً! على ما في بعضها من جَرْحٍ صريح، ولَمْزٍ غير مليح، مما لا يخفى على اللبيب! وإني والله لقد قَبِلتُهَا منكَ جميعَها، حُلْوَها ومُرَّهَا! ولو أنني وددتُ لو أنكَ كنتَ فيها أحسن وأبين! وإنك عندي – رغم ذلك – لكذلك!

[44] يشكو الشباب في أوروبا من تقصير علماء الدين وأئمة المساجد في الرد على رسائلهم البريدية، والإلكترونية، والهاتفية، ولو بإشارة، أو عبارة؛ بينما يجتهد العلماء والأطباء والأساتذة والرهبان الغربيون في الرد على مراسليهم. -مهما كان شأنهم- . وهذه مفارقة عجيبة. نسأل الله تعالى أن يعيننا وإخواننا على الخير، ويرحم تقصيرنا في حقه وحق عباده.

أخي ...! أسألك بالله الذي علمك وهداك؛ أنْ إذا سجدتَ لله بليل، أن تدعو لي!

ذلك، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وكتبه أخوك المحب لك، عبد ربه راجي عفوه وغفراه: فريد بن الحسن الأنصاري الخزرجي، عفا الله عنه وعن سائر المؤمنين.

ولا أنسى أنَّك قلت في خطبة مليحة صريحة ، مخاطبا بعض الشباب المغترين، المغالين، الذين استنكفوا عن حضور الجنائز، وتركوا الصلاة على أهل القبلة، بحجج واهية:" **ياشباب! عُودوا العُصاةَ! وَصلُّوا على كل بَرٍّ وفاجرٍ من أهل القبلة!.تواضعوا... أما ما ورد في "باب الجنائز" من اجتناب الإمامِ والفاضلِ الصلاةَ على عاصٍ مَخْصُوصٍ- من باب الزَّجْر- فهو صحيح مليح، وأنا أقره ولا أنكره؛ لكن اعلموا أننا لسنا من هؤلاء الأئمة! ولا من هؤلاء الفضلاء ! أبدا أبدا. نحن من العامَّة! فافهموا هذا ولا تغترُّوا**"! (أو كما قال).

أما معلِّموك ومربُّوك وموجهوك فلقد كنتَ لهم وفيّاً، وبهم حفيّاً- كما علمكَ القرآن-. وقلتَ عنهم بالحرْف -في رسالة متداولة-:" **وأما معلمي ومرشدي؛ فما زلتُ إلى الآن- وإلى أن ألقى الله إن شاء الله-**

أُقبِّلُ رؤوسَهُمْ وأَيْدِيَهُمْ، وأجلسُ متعلِّمًا عند أَقْدَامِهِمْ، وأعوذ بالله أن أُنكرَ فضلهم! رحم الله من مات منهم! وبارك في عمر من بقيَ!!".

وكان يُجلُّ أستاذه العلامة الشاهد البوشيخي جدا جدا، ويتواضع له، ويُنَوِّهُ به في المحافل، ويصفه ب" **أستاذنا العلامة الدكتور**..."[45] ، ولا يرضى أبدا بحال أن يقدمه أحد عليه، ويغضب غضبا شديدا على من خالف ذلك، ولو كان من أقرب المقربين..- كما حدث عارفوه-.

وقال -رحمه الله- متحدثا عن أحد شيوخ التربية والعلم: "أشتاق أشتاق.. إلى معانقة الشيخ الأستاذ... ، وأحب أن يمس صدره صدري!". ثم عقب قائلا:" لا لا أستغفر الله، هذا سوء أدب مني، هذا لا يكون.. فمثلي لا يعانق مثله؛ بل يُقبِّل يده ورأسه ! "[46]

وبقدْر ترقِّيك في مراقي القرآن كنت- أيها الفقيد- تزداد رقَّةً وحنانةً! وعلما وحلما! حتى أنَّ لِدَاتكَ- أقرانك- عجبوا لأمرك، واندهشوا لسرك؛ بل تحدث بعضهم عن فريدٍ القديم، وفريدٍ الجديد! كما تحدث أسلافهم من قبلُ عن سعيد القديم وسعيد الجديد[47]! وكذا يفعل القرآن

[45] مجالس القرآن، للأنصاري ص:83

[46] ذكر ذلك-يرحمه الله- في ندوة علمية مسجلة (قناة السادسة).

[47] ويتعلق الأمر هنا بسعيد النورسي رحمه الله.

بأهله! هكذا يصنع -والله- إذا خالطت بشاشَتُه القلوب، وصادف المحلّ القابل الظمآن، ..! " لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله" الحشر.[48]

وكان طبْعُكَ -الجادُّ- أيها العزيز- يكْرَهُ المظاهرَ الكاذبَة، والمجاملَة الزّائدة، والأبَّهَة الفارغَة..[49] شعاركَ: الصدق في الأقوال، الصدق في الأفعال، الصدق في الأحوال!" ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين" التوبة.

أما المتفيْهقِون، والمتَعَالِمونَ، والنَّفعِيُّون- الذين يأكلون الدنيا بالدين- فقد كانوا أثقلَ على قلبك من الرَّصاص! وأشدَّ عليْك من الحُمَّى! وكنتَ تَعرفهم- أخي- بسيماهم؛ فتتألفهم إلى حين، أو تلفظهم لفظ النَّواة؛ متمثلا قول الله عزوجل:" ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا" سورة الكهف ، وقوله تعالى" أما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك أن لا يزكى" عبس.

[48] ومضة: يقول الإمام ابن باديس رحمه الله في "مجالس التذكير": فوالله الذي لاإله إلا هو! ما رأيتُ -وأنا ذو النفس الملْأى بالذنوب والعيوب- أعظمَ إلانةً للقلب، واستدْراراً للدمع، وإحضاراً للخشية، وأبعثَ على التوبة من تلاوة القرآن، وسماع القرآن!".

[49] ومما أذكره هنا أنني عرفته على رجل مومن مسن، اسمه الحاج بتحدو رحمه الله؛ وكان معروفا عند الناس بنزاهته وصدقه، وتعلقه بالمساجد،؛ فقال لي الأستاذ: هذا الرجل صادق، وأحب أن نزوره في بيته. وتجشم رحمه الله مشاق الذهاب إليه،وقال: أعجبني فيه صدقه، أعجبني فيه نقاء فطرته !! أو كما قال.

وكم عبَّرت لي ياأستاذ، عن بغضك للمتكبرين والمتعالين، والمتعالمين والمتعجرفين! وما رأيتك تُثْني على ابن أنثى ثناءك على عباد الله المخلصين، وعباد الله المتواضعين، وعباد الله المتَعَفِّفِين!

ولم أسمع منك -على مدى ثلاثِ ليال حُسوماً- حديثا عن النفس- نفسك أنت- إلا في نطاق نقْدها.. وسياق كبحها! وكأنك تستحضر قول الحكيم السَّكندري- رحمه الله-: "**اسْتِشْرافُكَ أن يَعْلَمَ الخَلْقُ بخُصُوصِيَّتِكَ، دليلٌ عَلَى عدَمِ صِدْقِكَ في عُبُودِيَّتِكَ!**"، أو قول الشاعر الفقيه:

أمران مفترقان لستَ تراهما　　يتشوّقان لِخُلطة وتلاق

طلبُ المعاد مع الرياسة والعلى　　فدعِ الذي يَفنى لما هو باق

ما حدثتنا يادكتور، عن إنتاجك وإنجازك، وكتبك وبحوثك، وألقابك وشواهدك، وتلامذتك وطلابك..

ولا حدثتنا عن وظيفتك ورئاستك، ومسكنك ومركبك، وأصلك وفصلك..

ولا حدثتنا عن مرضك وابتلائك..، إلا أن نسألك عن ذلك سؤالا يحرجك! فتجيب – على عجل وخجل-، بل حدثتنا حديث العاشق

الوهان، عن منازل الإيمان، ومقامات الإحسان، ومجالس القرآن! لأنك علمت- بتعليم الله لك-وإلهامك لك- أنّ هذا من عُدَّة القبر، وزاد المعاد، والباقيات الصالحات، وسواه أَنَانِيَّةٌ، وعصبية، وكسروية، وعُجْبٌ وغرور، ولَغْوٌ ولهْوٌ، وَسَرابٌ ويَبَابٌ! "المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا" سورة الكهف.

وكنت ياسيدي من الأفراد الأفذاذ الذين لا يعبِّرون عن كل ما يعلمون، أو يجيبُون عن كل ما يسألون[50]- تورعا وتواضعا- ومشاركة وتعليما-. أحَلْتَ السؤال على هذا العبْدِ مرَّةً أو مرتين- ولسْتُ بذاكَ!-. وسمعْتُكَ بأذُنيّ هاتَيْنِ تعتذر عن الفتوى -في ملإٍ من قومك- وتقول:" لا لا.. لن أجيب؛ حتى أراجع! أنا المسؤول! أنا المحاسَبُ يوم القيامة! نسأل الله العافية!". وكانت هذه الكلمات الصادقة، تنْزل على قلبي كالصاعقة! بل كانت -والله- أبلغَ عندي وأنفع من ألف إجابة!

---

[50] يقول الحكيم ابن عطاء الله رحمه الله:" مَنْ رأيتَهُ مُجيبًا عن كلّ ما سُئِلَ، ومُعبِّرًا عن كلّ ما شهِد،،وذاكِرًا كلّ ما علِم، فاستدل بذلك على وجودِ جهلِه." :

وهل هناك أنفع ياسادة، من دروس الورع والخشية؟ والتوقف والتثبت؟ والقدوة والمثال؟[51]

فدُلُّوني ياناس، على نموذج مثله في بلاد المهجر(المهاجَر) ! أروني أروني من قال على المنبر، أو على "الهواء " مباشرة: لا أدري، لا أعلم، ..أنا متوقف! أو ما أشبه ذلك من ألفاظ الاعتذار.

لا جَرَمَ أن هذا كائِنٌ وواقع وحاصل- والحمد لله- ؛ لكنَّ أخاكم- القصيرَ الباع والاطلاع- لَمْ يَرَ هذا إلا من فريدٍ الفريد!

أتمنى على الزمان محالا   أن ترى مُقْلتاي طَلْعَةَ حُرِّ!!

وكم كنت ياعبد الله، تكره المدح والثناء، والتسميع والرياء**!** مكتفيا بعلم الله فيك، ونظره إلى قلبك! مردداً على الدوام:" الله يستر العيب، الله يستر العيب!"." ما كان لله لا يحتاج إلى إعلام!".

---

[51] يقول ابن مسعود–رضي الله عنه–: " كفى بخشية الله علما"! . وسئل الإمام أحمد عن الزاهد معروف الكَرْخي: هل معه شيء من العلم؟ فأجاب الإمام:" نعم يابنيَّ! معه كل العلم، وهو خشية الله تعالى"! . وقال شيخ العارفين–كما لقبه ابن القيم– الإمام الجنيد رحمه الله:" العلمُ:" أنْ تعرفَ ربَّك، وأن لا تعْدُوَ قدْرَك" !

وما صورتك الأخيرة-على شبكة الإنترنيت- إلا تعبير عن هذه البذاذة الإيمانية[52]، وترجمة ناطقة لسجود القلب لله[53]- إن شاء الله -! وما رآك أحد في سَمْتك[54] هذا إلا ذَكر الله! وقال: لاإله إلا الله![55]

---

[52] وقد صحح هذا الحديث الحاكم ، وقال الحافظ فيفتح الباري - (ج 10 / ص 368) وهو حديث صحيح أخرجه أبو داود .
وكذلك الطحاوي في"مشكل الآثار"1 / 478:
حين قال : فكان معنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم"البذاذة من الايمان"أي: أنها من سيماء أهل الايمان، إذ معهم الزهد والتواضع وترك التكبر كما كان الانبياء صلوات الله عليهم في مثل ذلك.
ونقل صاحب عون المعبود - (ج 9 / ص 199) قال :
وقال أبو عمر النمري : اختلف في إسناد قوله البذاذة من الإيمان اختلافا سقط معه الاحتجاج به ولا يصح من جهة الإسناد .
وصححه الشيخ الألباني رحمه الله تعالى.(نقلا عن موقع ملتقى أهل الحديث)

[53] قيل لبعض العارفين : أيسجد القلب ؟ فقال : نعـم ، سجدة لا يرفع رأسه منها أبدا.

[54] ورحم الله القائل!: "من لم ينفعْك لَحْظُه، لم ينفعْك لفْظُه" .أو بعبارة أقرب لابن عطاء الله:" من لم يُنهِضْك حاله، لن يَدُلّك على الله مقالُه " .

[55] جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً: (أولياء الله الذين إذا رؤوا ذكر الله).أخرجه المروزي في زوائد الزهد لـابن المبارك ، والطبراني في الكبير، و أبو نعيم في أخبار أصبهان، و الضياء في المختارة. وقوّاه الشيخ ناصر رحمه الله تعالى في السلسلة الصحيحة، المجلد الرابع، برقم (1733).
وهذا الحديث كما قال الفقيه الطبيب، سيدي محمد بن إسماعيل المقدم الكناني، نفعنا الله به وبعلومه: " يبين علامة من علامات الأولياء الذين قال الله عز وجل عنهم: أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ [يونس:62-63]. فبين النبي صلى الله عليه وسلم علامة من علاماتهم، هي أنهم إذا رآهم الناس وشاهدوهم تذكروا برؤيتهم الله سبحانه وتعالى.
ونرجو الله أن يجعلنا وأخانا فريد وجميع المومنين والمومنات من أوليائه وأصفيائه، بفضله وكرمه وإحسانه. آمين.

وأما لقب "دكتور" الذي تشرَّف بك، ولازمك، وزانَكَ؛ فإنك قد زهدت فيه أخيرا- اقتداء ببعض أصحابك- ، وكأنك تستحضر قول القائل: [56]:

و مما زادني شرفا وتيها وكدت بأخمصي أطأ الثريا

دخولي تحت قولك ياعبادي وأن صيرت أحمد لي نبيا

وكم كنت سعيدا في خلواتك وجلواتك بمقولة بديع الزمان، و"**آخر الفرسان**"[57]:

" ياسعيدُ كن صَعيداً! في نكران تام للذات، وترك كلّي للأنانية، وتواضع مطلق كالتراب! ".

وكن أرضا لينْبُت فيك وردٌ فإن الوردَ منبته الترابُ

[56] هذا الشعر يُنْسَبُ إلى الإمام القاضي : ((عياض بن موسى اليحصبي الأندلسي)) المتوفى سنة 544 هـ

[57] سعيد النورسي!-يرحمه الله. و(آخر الفرسان) عنوان لرواية مشهورة بقلم الشيخ.

تأسٍّ واستنهاض!

فما أحوجنا أيها الفقيد العزيز إلى الزاهدين مثلك في "**الأجور المعنوية**" التاركين أنانيتهم بالكلية، أو بالجزئية!

ما أحوجنا ياأخي -في هذه الأزمِنة المُزْمِنَة- إلى صفاء السريرة، واكتشاف الذات، والتفاني في المجموع!.

ما أحوجنا إلى ضمائر"**نحن**" و"**أنـــتم**" و "**هم**" و" **هن**"، **بدلا من التغني سَرْمداً بِجعجعة: "أنا" و"عندي" و"لي"** ، وإسنادِ غَلاَّتِ أشخاصٍ متعددين لشخص واحد! - سمِّه المقَدَّمَ الرائدَ، أو العميدَ المديرَ، أو الإمام الراتبَ، أو الشيخَ المعلم، أو العصاميَّ العبْقَرِيَّ، أوما شئت من ألقاب! عَلَى حِينٍ أن ذلك من عرق المجموع! وغِراس المجموع! وحَصادِ المجموع، وحق المجموع!

أما رأيتَ أهل القبلة عندنا يافريدنا الفقيد! يتغايرون تغاير التُّيُوس في الزَّريبة- على حد تعبير ابن عباس- ويكيدون كيد الضرائر؟! أما رأيت أن أمتنا في كل مكان، تعاني من فقْرٍ مُدْقِعٍ في فقه الاختلاف، وأدب الحوار.. وكأن لسان الحال يقولُ مع القائلين: "إمَّا مَعَنَا، أوْ عَلَيْنا"!.

كيف تغارين يانفسي المخْدُوعَة، المغرورة، من شخص يُؤدي عنكِ فروضَ الكفاية، ويحملُ معكِ الأثقال، ويؤنسكِ في الطريق، ويسُدُّ عنكِ باباً لا تستطيعين سَدَّه؟

ماذا يَضيرُكَ ياقلبي العَليل! أن يَبزَّكَ -يغلِبك- فلان أو عَلان، أو أن تُقْبلَ عليه القلوب، وَتهوِي إليه الأفئدة، أو أن يركع في غير مسجدك، ويقرأَ في غير مقْرَأَتِك، إن كنتَ تعمل لله، لا للشهرة والجاه؟!

زفرة مصدور!!:

أيّ لُوثَة ياقوم! أصابت المسلمين في بلاد الرُّوم! حتى صرنا إلى هذا الوضع المشؤُوم!؟ لماذا هذا التآكل والتغاير؟ لماذا هذا التآمر والتدابر..؟

ورحم الله شاعرنا المجذوب[58] على هذه الأبْيَاتِ الأبِيَّات، التي اتخذ منها أنشودة يومية؛ كلما اشتدَّت عليه أشجان المسلمين- وما أكثرها-! :

ياخليلَيّ خلِّياني وأشجاني   أناجي أطيافهنّ وحيدا

لقد عصتني الدموعُ، لكنّ قلبي   في جحيم الأسى يذوب وئيدًا

وجِراحُ الإسلام من كل صوْب   قاتلاتي، وإن بَدَوْتُ جليدًا!

[58] العلامة الشاعر الأديب، محمد المجذوب، نزيل المدينة المنورة، وصاحب الكتاب المشهور:" علماء ومفكرون عرفتهم" . رحمه الله.

إن التغاير بيْن أهل القبلة هاهنا[59] – يا أحباب الفقيد – أشدُّ مضَاضَة من قصة المآذن في جُنيف! و"فوبيا" المساجد في برلين!- بلا مبالغة-؛ بل إنك لتَتَفَادَى- والله- أن تَذْكُرَ ههنا مسجدا بخير، أو عالماً بخير، أو مذهبا بخير، سدّاً للذريعة، وحماية للعِرْض! أي: خشيةَ أن يُسْمِعَك الْمُتَرَصِّدُ، العَلِيلُ، الغَيْرَانُ، ما لا يَحِلُّ سماعُه، ويَحْرُمُ ذكرُه!. وكم من مساجد هنا سعى المسلمون (أنفسهم) في خرابها، بأنانيتهم وصفاقتهم، وسوء أعمالهم.. ثم قالوا: فعل العنصريون، وكاد العنصريون[60]، وخرب العنصريون...والله الموعد**!!**

وكم من إمام فاضل طردوه وشرَّدوه .. سفهاً بغير علم! وكم وكم! فنعوذ بالله من شر حاسد إذا حسد! ونعوذ به تعالى من الفهم السقيم، والقلب السقيم! "أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله" النساء.

وكم كان يؤلمك ويؤذيك ياعبد الله (فريد الأنصاري)! اتهامُ العامة لك بالفرار منهم، والاحتجاب دونَهُم -خلافا لعادتك- بدعوى أن المناصب قد غيَّرتك، والدنيا قد أكلتك! والأضواء قد خطفتك! وما إلى ذلك من

---

[59] بالبلاد الغربية.

[60] وهذا لا يعني نفي ظاهرة العنصرية في ا الأوساط الغربية؛ بل القصد ما ذكرناه.

كلام لا خطام له ولا زمام.. وما علموا أن الذي غيَّرك حقا، وعزلك صدقا.. هو المرض العضال! الذي أوْهن عظمك، وكدَّر طبعك، وسلَب شبابك. آهٍ ! لو كانوا يعلمون! آهٍ على الأسقام ! وكيف تُكدِّرُ الطباع! وتُغيِّر الرجال! نسأل الله تمام العافية ودوامها! وصدق الله في كتابه:" ليس على الاعمى حرج، ولا على الأعرج حرج، ولا على المريض حرج..." سورة الفتح.

الةُ العيْش صحّةٌ وشبَابٌ فإذا ولّيا عن المرْءِ ولّى

ما أعذروك ياعبد الله، وأنت مُسَجّى في ثيابك، مُلقى على سريرك- لا حول لك ولا قوة- تكتب على جَنْب، وتنام على جَنْب، وتصلي على جَنْب! ولا أعفوك وأنت تطوف على الأطباء؛ آملا في العلاج، راجيا رحمة الله الواسعة السابغة..!!

ولذلك كنت تترجَّى أيها العزيز! أن تستعيد عافيتك عاجلا، وتسأل الله الفرج القريب، من أجل هؤلاء المساكين، الذين أحسنوا الظن بك، وازدحموا على بابك ومحرابك -كما حدثتني وأحزنتني-! وهذا من أخلاق القرآن، وشمائل النبي العدنان: " فبما رحمة من الله لنت لهم ". سورة آل عمران. " لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم". سورة التوبة.

وعن عبد الله بن شقيق، قال: قلت لعائشة رضي الله عنها: " أكان نبي الله صلى الله عليه وسلم يصلي جالسا؟" قالت:" بعد ما حطَمَه الناس"[61].

وكنت قرآنيا أيضا -أخي فريد- في تعاملك مع غير المسلمين، في أرضهم وديارهم؛ تبرُّهم وتقسط إليهم.. كما قال القرآن، " لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين و لم يخرجوكم من ديارهم أن تبروهم وتقسطوا إليهم.إن الله يحب المقسطين" سورة الممتحنة. وتقول لهم حُسناً، كما أمر القرآن" وقولوا للناس حُسْنا" . سورة البقرة.

لما خرجنا إلى الثلوج، بمنطقة "**لِفُوجْ**"[62] كنت أنتَ السَّبَّاقَ إلى مسالمتهم، ومحادثتهم، ومجاملتهم! - مكسِّرا حاجزَ الخوف والحذر! - وطاوعْتَني-رحمك الله- في لبْس المِعْطف الشتوي -رغم أصالتك- تأليفا لقلوبهم، وجَرْياً على عادتهم.. فيما لا بأس به شرعا - وأنت الفقيه المقاصدي النَّظَّارُ-. وما مررت -رحمك الله- بشيخ، أو عجوز، أو معاق.. إلا وقلت" bonjour"(صباح الخير). وما مررت ببَرٍّ أو فاجر إلا بششْت في وجهه، وآنسته بقولك - غير راغب ولا راهب-؛ حتى أن

[61] رواه أحمد ومسلم، وغيرهما .

ومعنى حطَمَه الناس: أي صيَّروه شيخا محطوما، بما حَمَّلوه من أثقالهم وهمومهم

[62] بشرق فرنسا. (منطقة اللورين).

الجيرةَ- على غير العادة- فطِنوا لمقدمك، واستأنسوا بطلْعتك، وعجِبوا لأخلاقك!

لله قومٌ إذا حلّوا بمنْزِلةٍ   حلّ النّدى ويسيرُ الجودُ إن ساروا

وقلتَ -رحمك الله- بتفاؤل المؤمن، وهمّة الموقن:" سأجتهد في تجويد فرنسيتي، وأكرر زيارتي! وأُشْهدكم أني قد صحَّحْتُ صورتي عن الإسلام وأهله في فرنسة! فالحمد لله الذي جاء بي إليكم! الحمد لله الذي أراني ما تقَرُّ له العين!... ". أو كلاما هذا معناه.

تأسٍّ وانفتاح:

فياأهل القرآن! تأسّوا بفقهائكم! اخرجوا من خلواتكم! وامشوا في الناس بأنواركم." أو من كان ميّتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها.." سورة الأنعام.

فما تُغْني الخلوةوالانقطاع، وهذا عصر التمدن والاجتماع، والعولمة والانفتاح؟! وما ذا يَعْني التّرهبن-سادتي- ونبينا القدوة كان يغشى النوادي والأسواق؟![63]

[63] يقول الشيخ عبد القادر الجيلاني في الفتح الرباني – وهو يبين لنا صفات المسلم الكامل الزاهد البصير: " الزاهد الكامل في زهده لا يبالي في الخلق، لا يهرب منهم بل يطلبهم " ويقول: " المبتدئ يهرب من الفساق والعصاة، والمنتهي يطلبه ، كيف لا يطلبهم وكل دوائهم عنده "ثم يقول: " من كملت معرفته لله – عز وجل – صار دالاً عليه"

بصيرة قرآنية:

أثنى الله على عبده عيسى بن مريم في القرآن ؛ فقال- على لسانه-: "وجعلني مباركاً أينما كنت" أي نفّاعاً لعباده أينما حللْتُ- كما قال العزُّ بن عبد السلام رحمه الله في (شجرة المعارف والأحوال). .

وكنتَ قرآنيا -ياأخي الأنصاري- وأنت تقرأ الكون الفسيح قراءتك للوحي الفصيح. أي: تتفكر في الكون المنظور، كما تتدبر في الكتاب المسطور.

قليل قليل -إخوتي- ما هم -أولوا الألباب- في هذا الزمان "الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم، ويتفكرون في خلق السموات والأرض" آل عمران. وكنت أنت – أيها الأخ الجليلُ- من هذا القليل، ومن هذا القبيل! – وما شهدنا إلا بما علمنا-! تنظر في ملكوت الله...مسبحا مهللا، ذاكرا مستغرقا! حتى لننسى أننا معك وأنت معنا! فسبحان من هداك واجتباك! سبحان من علمك وزكاك!

واني لتعروني لذكراك هِزّةٌ كما انتفضَ العُصفورُ بلّله القَطْرُ

وكنت قرآنيا ربانيا،- ياسيدي- لما سارعت إلى وصْل قرباك، رغم ضيق وقتك، واعتلال صحتك، وقلة حيلتك! رأيتك كيف نزلت-من سيارتي- بعصاك، تلتزم ابن خالتك -العامل المغترب في فرنسا-، وتُعبِّرُ له-باللغة التي يحسنها- عن خالص حبك، وحرارة شوقك! معتزّاً به، مقدِّما له على غيره، دون تصنع ولا تكلف، ولا استعلاء ولا كبرياء.

وما هذه إلا أخلاق قرآنية ، ربانية، فطرية، وترجمة فصيحة لقوله تعالى:" وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله...". سورة الأنفال.

ولقوله صلى الله عليه وسلم في وصف أهل الجنة:" ... ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم". رواه مسلم.

نداء واهتداء:

فيارفقاءَ السفر إلى دار المستقَرِّ! ياإخوتي في الإيمان والقرآن!

إنْ كُنَّا متأسِّين بأخينا - الأنصاري- حقاً- فلنخرُجْ إلى الناس-كل الناس- بأخلاقِ الْوَحْي الثَّابتة الرَّاسِخة! لا بمِزَاجنَا الشَّخصي، الذي يَتلوَّنْ بِتَلوُّن النوازلِ والأحْوالِ! سئلت عائشة- رضي الله عنها- عن أخلاقه عليه الصلاة والسلام، فقالت:" كان خُلقه القرآن"! رواه أحمد ومسلم وأبو داود، وزاد مسلم :(يغضب لغضبه ويرضى لرضاه).

نعم، هذه هي الأخلاق الأصيلة الجميلة التي تنفع الناس، وتَمكُثُ في الأرض! وغيْرُها نفْعيٌّ، مصلحيٌّ، مِزَاجيٌّ، تجاريٌّ، آنيٌّ! " ...مَا لها مِنْ قَرَارٍ".سورة إبراهيم.

اللهم باسمك الرحيمِ ارحمْنا، وارحمْ بنا! واهدنا لأحسن الأخلاق! إنه لا يهدي لأحسنِها إلا أنت!

ولقد كنت قرآنياً، رقيقَ القلب ياسيدي، وأنت تَلين للولدان، وتُسلِّم على الصبيان، وتضعهم في حُجرك، وتضمهم إلى صدرك- فرِحا مسروراً- فيأنس الأبوان، وتنزل السكينة، وتعم الرحمة، ويسعد الجميع! فهنيئا هنيئا لك أخي بهذا الخُلق! ووفقنا الله جميعا إلى ذلك! آمين آمين!

تذكير وتبصير!

فياحُمَّالَ رسالة القرآن، اقتدُوا تَرْشُدُوا! هذه أخلاق نبيكم، وشمائل سيدكم، وأنتم ورثته ونوَّابه؛ فارحموا الخلق، وراقبوا الحق! ولْنَفْتَكِرْ مرة أخرى؛ أن أنجع وسيلة لخدمة الدنيا الدين، هي السماحةُ واللين، واتباعُ هَدْي المرسلين، وآخر وسيلة وأخطرها: **المكروفون والتلفون! والشاشات والشهادات! والأضواء والألقاب!.**

فيأيها المبتلى المسكينُ-مثلي- أفِقْ!!!

ويانفسي المخدوعة المغرورة! تأمَّلِي قولَ الإمام القُدْوة السَّري السقطي، رحمه الله، الذي كان يعجبه ما يرى من علم الجُنَيْد "أبي القاسم"، وحسن خطابه، وسرعة جوابه، فقال له يوما:" أخشى أن يكون حظُّك من الدنيا لسانَك"!

وكان الجُنيد العارف الإمام لا يزال يبكي من هذه الكلمة! كلما ذكرها! فماذا يقول جُنَيْدُو آخر الزمان؟!! بل ما ذا نقول نحن

ياإخوان؟ ماذا نقول ماذا نقول؟ فاللهم أَجِرْنا من التسميع والتلميع! واسترنا يا بصير ياسميع!! آمين.آمين!

ولو استرسلتُ في عدِّ مناقبك ومشاهدك وذكرياتك – ياسيدي- لطال بي المقام، ولو ذكرت هذا في حضرتك وحياتك؛ لما أذنتَ لي بقليله أو كثيره!. وما كنتُ أنا- الفقير إلى الله- لأغامر بذلك، أو أقدم عليه إلا مع من سقط عنهم التكليف، وتقطعت بهم الأسباب، وغيَّبهم التراب، وأفْضَوْا إلى رب الأرباب! لأنَّ "الأحياءَ لا تُؤْمَنُ عليهم الفتنة" كما قال ابن مسعود-رضي الله عنه-.

وقصدي من هذه السَّوانح والخواطر- **التي لم تأت مُرتَّبةً إلا بحسَب توارُدِها على الخاطر**- أن نستقيَ من حيث استقى الفقيد فريد- يرحمه الله- وأن نتضلع جميعا من ماء القرآن، وكوثر القرآن، ومشرب القرآن، وأن نرتقي في العناية به درجةً درجة، ومنزلة منزلةً، كما هو واضح في شعار الفقيد :" من القرآن إلى العمران"

وأعتقد أنه قد آن الأوان، لنقيم دورات ومسابقات وسَلْكَاتٍ؛ لتدبر القرآن، ومدارسة القرآن، بدلا من صرف العناية كلها، أو جُلِّها، للحفظ والتجويد- على أهميتهما- ذلكم أن المجودين في زمننا كثير! – والحمد لله- والحفاظ أكثر! ولكن القليل، من يعلم التأويل، ويفقه

التَّنْزيل! وأقلّ منه من يحفظ القرآن المجيد حفظ العمل، ويتمثل بأخلاقه! ومن المعلوم من الدين بالضرورة، أن القرآن أنزل للتدبر والاتباع- كما سبق بيانه-. أيها الأوفياء الأعزاء! إنَّ أغلى هديةٍ تُقَدَّمُ اليوم إلى الفقيد فريد- نوّر الله مضجعه وخلد في العلماء ذكره- هي إقامة الصلاة، والتمسيك بالقرآن، وخصوصًا سُورةَ الفرقان! "والذين يمسِّكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين" الأعراف. هذا ما يسرُّ الأنصاريَّ- حقيقةً- ويُؤْنسُهُ في قبره! وهذا ما كان يَصْدَع به ويصدح في رسائل البلاغ، وَيُدَنْدِنُ به في وقت الوداع! ونرْجو الله تعالى أن لا يُخْزِيَه في "وارث السِّرِّ" أيوب الأنصاري، وبقيةِ الورثة! فإن الوارثَ والموروثَ بعضهما أوْلى ببَعْضٍ في كتاب الله! "وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله" الأنفال. فاللهَ اللهَ ياأيوب في هذه التركة العظيمة! اللهَ اللهَ ياذُرِّيَّةَ الفقيد في كَدِّ الوالد وأرَقِه وعَرَقِه! فإنَّا قد أحسنَّا الظن بهذه الدَّوْحَةَ المباركة، وَاستودعنا أمانة الله الموهوبَ "أيوب". وقديما قيل: "**النجيب لا ينجُبُ، فإن أنجب أبدع**" فلتكن مبدعا أيها النَّجيب! وليكن لك من اسمك نصيب! فإنك " **أيوب الأنصاري**" تأمَّلْ تأمل !!

لقد رشحوك لأمر لو فطنت له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

اللهم إنا نسألك باسمك الحفيظ أن تحفظ ذرية الأنصاري، وأهل الأنصاري، وأحباب الأنصاري! وتُذهبَ عنهم الحزَن! وتقيَهم الفتنَ، وتُغْنِيَهُم بالقرآن! رب اجعلهم مقيمي الصلاة، ولا تجعل فيهم تاركا ولا فاسقا إلى يوم القيامة!

أجلْ، ما كان الأستاذ-رحمه الله- يهتم بشيء اهتمامه بالصلاة والقرآن! كان هذان الأمران- بلا شك- شغله الشاغل، وهمُّهُ الدائم! آيةُ ذلك: كِتَابُهُ العُجابُ:" **الدين هو الصلاة**..."! ولو استقبل من أمره ما استدبر؛ لما خرج – في تقدير هذا العبد- عن هذين الأصليْنِ في دعوته! بل ولكان فيهما من المجددين - بلا منازع!- .

فالله الله ياإخوتي، في الصلاة والقرآن! الله الله في هذين الركنين العمودين، والحبْلين الممدودين! فإنه من حفظهما كان لما سواهما أحفظ! ومن ضيَّعهما كان لما سواهما أضيَع! " اتل ما أوحي إليك من الكتاب، وأقم الصلاة. إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر" العنكبوت.

دفع إشكال، وجواب عن سؤال.

و لم يكن لعالِمنا الأنصاري-رحمه الله- طموح سياسي حزبي-كما عرفناه وبلوناه! و لم يكن له-أيضا- انتسابٌ صُوفيٌّ (كولوني /نورسي)[64]

[64] صرح بديع الزمان النورسي في أكثر من رسالة أنه ليس صاحب دعوة صوفية، بالمفهوم المعلوم، وكذا وارثه السيد فتح الله كولن. وليس هذا موضوعا للبحث عندنا.

- كما روَّج البعض -؛ بل كان شغله الشاغل-بشهادة من عرفه- تعبيدَ الناس لرب العالمين، وتخريجَ جيل من الربانيين، على وِزَانِ ما فصَّله في كتابه: " **مفهوم العالِمية**" وغيره من كتبه.

نعم! كان للشيخ-رحمه الله- ماضيه الدَّعَوي المعلوم، الذي انْتَهَى بالانخراط في المجالس العلمية، والمؤسسات الدينية- الرسمية -بقناعة علمية، وموازانة شرعية-.

وإنصافُه للظاهرية، والحَنْبَلِيَّة التَّيْمِيَّة، والصُّوفية الطرقية، والرُّموز العلمية والفكرية.. مُسْتَفِيضٌ مشهور! وكلامه في ذلك كلامُ العالم الناقد المَقَاصديِّ الأصولي، المستقلِّ -في فهْمه ومنْهجه-، الذي لا يعرفُ الرَّوَغَان والزَّيَغان، والتملُّقَ والتورُّق[65]!

وكان له انسجام فكري- وربما روحي أيضا- مع "النُّوريين" في تركيا. -وهذا من قبيل المتواتر-؛ ولكنَّ مَشْرَبَه في النهاية هو: مشْربُ المغاربة جميعاً، ومسْلَكُه هو مسلكُهم -عقيدة ومذهبا وسلوكا-، لا ينفرد عنهم بشيء!

---

[65] تعبير مستعار من-منتقده- الشريف سيدي أحمد الريسوني في رسالة: "العلماء بين التملق والتورق".

والتملق والمَلَق بمعنى واحد. وفي (اللسان): "رجل مَلِقٌ: يعطي بلسانه ما ليس في قلبه"

وأما التَّوَرُّق: فهو تعبير فقهي، مأخوذ من الورق، وهي الفضة أو النقود الفضية. وهو عبارة عن معاملة مالية يلجأ إليها بعض الناس، بغرض الحصول بواسطتها على المال، دون تعامل ربوي صريح. والمقصود بالتورق هنا: السعي إلى الحصول على المال والأوراق المالية..

وما نُقل عنه- رحمه الله- من اختيارات فقهية، وآراء تجديدية-هنا وهناك- فهي -في نظرنا المتواضع- لا تَخْرُجُ عن **"الاجتهاد داخل المذهب"**- على حدِّ تعبير الأصوليين-. ولو تفرغ صاحبنا للفقه وأصوله؛ لكان فقيه عصره- بلا نزاع-، ولو واصل مسيرة الأدب والشعر لكان جاحظ الزمان، ولو تخصص في المناظرة والبحث لكان جرجاني المكان..؛ ولكنه آثر القرآن، وخدمة الإيمان، إلى أن لقي الرحمن! متشبعاً بقول بديع الزمان:" **هذا زمان إنقاذ الإيمان!**".

وكل ميسر لما خلق له.

ثم إن فريدا الفقيد- كما عهدناه-! ما كان يسعى أَلْبَتّة، أن يَعْرِفَه الناس، أو أن يزدحموا على نعْشه، أو أن يَشْتَغلوا بشخْصه الْفَاني، في حياته أو بعد موته. فذاك كلُّه من مُتَعَلّقات السُّمْعة، وخالص الرياء!- كما قال أهل الله- بل كانت وصيَّتُه بكلِّ حال: "ولكن كونوا ربانيين..." سورة آل عمران. أي موصولين بالرب العظيم، الكريم، الرحيم، الحليم، الحي الباقي، الذي لا يموت! مردداً قول الحق سبحانه:" وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم.... " آل عمران.

رجاء وختام:

وإني لأهيب بأحباب الفقيد، وحمَّالِ رسالة القرآن، في كل مكان، أن يطلبوا القرآن طلبا لا يضر بالسنة، وأن يطلبوا السنة طلبا لا يضر بالقرآن! فإن القرآن الكريم- مهما أحببناه وحفظناه وتلوناه- ياسادة- لا يُفهم-قطْعاً- إلا في ضوء السنة، والسيرة، والفقه، وقواعد اللغة.

كما أن العالم الحق، لا تتمُّ صناعتُه، ولا تتجلّى ربَّانيَّتُهُ، إلا إذا جمع بين العلم بالله، والعلم بأحكام الله، والعلم بالناس- كما كان يردد الفقيه فريد رحمه الله-.

ومن ثَمَّ وجَبَ- إخوتي الأعزة- توسيع دائرة الفكر والنظر، والاعتناء بكل المعارف والفنون ؛ وفاءً بحق القرآن، ورسالة القرآن. والمُلْهَمُ من ألهمه الله!

وهنا نُمْسك عنان القلم، ونترك لَبِنَةَ التَّمَامِ، ومسك الختام، للمقرئِ الإمامِ،(صاحبِ نظم"الشاطبية") الربَّاني، الضرير، القاسم بن فِيرُّه الشاطبي - نفعنا الله به- القائل:

وإن كتابَ الله أوثقُ شافعٍ وأغنى غَناءٍ واهباً متفضّلا

إلى أن يقول:

فيأيها القَارِى به متمسكاً مُجِلّا له في كل حال مُبَجّلا
هنيئاً مريئاً والداك عليهما ملابسُ أنوارٍ من التّاج وَالحُلَا
فما ظنُّكم بالنَّجْل عند جزائه أولئك أهلُ الله والصَّفْوَةُ المَلَا

فهنيئا مريئا والداكَ، ابن الحسن! هنيئاً لك أبا أيوب! وجعل الله هذا الكتاب العظيم -الذي أحببته وخدمته- أوثقَ شافع، وأغنى غَناءٍ لنا ولك في الآخرة! وحشرنا وإياك مع الأنصار والمهاجرة!

وإنا لله وإنا إليه راجعون!

وكتبه بجَنانه وبَنانه- بمدينة إبنال الفرنسية الآمنة - الراجي عفو ربه ، أحمد بن علي الهبطي ، غفر الله له ولوالديه ولمربيه، ولسائر المومنين والمومنات!

يتبع- إن شاء الله- بمقالة متممة عن الدروس المستخلصة من قبض الأستاذ العلامة فريد رحمه الله. وهي الأهم. والله أعلم!